يوسف زيدان

عزازيل

روايـة

دار الشروق

إهداءٌ خاصٌّ جداً :

إلى آية ..

تلك يا ابنتى ، آيتى ، التى لم تُجعل للعالمين!

لِكُلِّ امرئٍ شَيْطَانُهُ ، حَتَّى أَنَا ، غَيْرَ أَنَّ الله أَعَانَنى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ..

(حديثٌ شريف ، رواه الإمام البخارى بلفظٍ قريب)

مُقدمة المترجِم

يضمُّ هذا الكتابُ الذى أَوْصيتُ أن يُنشر بعد وفاتى، ترجمةً أمينةً قَدْرَ المستطاع لمجموعة اللفائف (الرقوق) التى اكتُشفتْ قبل عشر سنوات بالخرائب الأثرية الحافلة، الواقعة إلى جهة الشمال الغربى من مدينة حلب السورية، وهى الخرائب الممتدة لثلاثة كيلومترات، على مقربةٍ من حوافِّ الطريق القديم الواصل بين مدينتىْ حلب وأنطاكية العتيقتين اللتين بدأتا تاريخهما قبل التاريخ المعروف. وهو الطريق المرصوف، الذى يُعتقد أنه المرحلة الأخيرة من طريق الحرير الشهير، الذى كان فى الأزمنة السحيقة يبدأ من أقاصى آسيا، وينتهى مُنهَكًا عند ساحل البحر المتوسط. وقد وصلتنا هذه الرقوق بما عليها من كتابات سُريانية قديمة (آرامية) فى حالةٍ جيدةٍ، نادرًا ما نجد مثيلاً لها، مع أنها كُتبت فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى، وتحديدًا: قبل خمسٍ وخمسين وخمسمائة وألف، من سنين هذا الزمان.

وكان المأسوفُ عليه، الأبُ الجليلُ وليم كازارى الذى أشرف بنفسه على التنقيبات الأثرية هناك، وهناك لقى مصيره المفجع المفاجئ (منتصف شهر مايو سنة ١٩٩٧ الميلادية) يرجِّح أن السِّرَّ فى سلامة هذه اللفائف، هو جودة الجلود (الرقوق) التى كُتبت عليها الكلماتُ، بحبرٍ فاحم من أجود الأحبار التى استُعملت فى ذاك الزمان البعيد. علاوةً علَى حِفْظها

فى ذلك الصندوق الخشبى، محكم الإغلاق، الذى أودع فيه الراهبُ المصرىُّ الأصل هيبا مادوَّنه من سيرةٍ عجيبة وتأريخٍ غير مقصود لوقائع حياته القَلِقة، وتقلُّبات زمانه المضطرب.

وكان الأبُ كازارى يظنُّ أن الصندوق الخشبى المحلى بالزخارف النحاسية الدقيقة، لم يُفتح قطُّ طيلة القرون الماضية. وهو ما يدلُّ على أنه، عفا الله عنه، لم يتفحَّص محتويات الصندوق بشكل جيد. أو لعله خشى أن يفرد اللفائف قبل معالجتها كيميائيًا، فتتقصَّف بين يديه. ومن ثَمَّ، فهو لم يلحظ الحواشى والتعليقات المكتوبة على أطراف الرقوق، باللغة العربية بقلم نسخىٍّ دقيق، فى حدود القرن الخامس الهجرى تقديرًا. كتبها فيما يبدو لى، راهبٌ عربى من أتباع الكنيسة الرُّهــا التى اتخذت النسطورية مذهبًا لها، ولا يزال أتباعها يُعرفون إلى اليوم بالنساطرة! ولم يشأ هذا الراهب المجهول أن يصرِّح باسمه. وقد أوردتُ فى هوامش ترجمتى، بعضًا من حواشيه وتعليقاته الخطيرة، ولم أورد بعضها الآخر لخطورته البالغة.. وكان آخر ما كتبه هذا الراهب المجهول، على ظهر الرَّقِّ الأخير: *سوف أُعيد دفن هذا الكنز، فإن أوان ظهوره لم يأت بَعْدُ!*

وقد أمضيتُ سبع سنين فى نقل هذا النصِّ من اللغة السريانية إلى العربية. غير أننى ندمتُ على قيامى بترجمة رواية الراهب هيبا هذه، وأشفقتُ من نشرها فى حياتى. خاصةً وقد حَطَّ بى عمرى فى أرض الوهن، وآل زمانى إلى خَطِّ الزوال.. والرواية فى جملتها تقع فى ثلاثين رَقًّا، مكتوبة على الوجهين بقلم سريانىٍّ سميك، بحسب التقليد القديم للكتابة السريانية الذى يسميه المتخصصون الخط الأسطرنجيلى؛ لأن الأناجيل القديمة كانت تُكتب به. وقد اجتهدتُ فى التعرُّف إلى أية معلومات عن المؤلِّف الأصلى، الراهب هيبا المصرى، إضافةً لما رواه هو عن نفسه فى روايته، فلم أجد له أىَّ خبرٍ فى المصادر التاريخية القديمة.

ومن ثم، فقد خَلَت المراجع الحديثة من أيِّ ذكر له. فكأنه لم يوجد أصلاً، أو هو موجودٌ فقط فى هذه (السيرة) التى بين أيدينا. مع أننى تأكَّدتُ بعد بحوثٍ مطوَّلة من صحةِ كُلِّ الشخصيات الكنسية، ودِقَّةِ كل الوقائع التاريخية التى أوردها فى مخطوطته البديعة هذه، التى كتبها بخطِّه الأنيق المنمَّق من دون إسرافٍ فى زخرفة الكلمات، وهو ما تُغرى به الكتابة السريانية القديمة (الأسطرنجيلية) الزخرفية بطبعها.

وقد مكَّننى وضوحُ الخطِّ فى معظم المواضع من قراءة النص بيسر، وبالتالى ترجمته إلى العربية دون قلقٍ من قلق الأصل واضطرابه، مثلما هو الحال فى معظم الكتابات التى وصلتنا من هذه الفترة المبكرة.. ولا يفوتنى هنا أن أشكرَ العلاَّمة الجليل، كبير الرهبان بدير السريان بقبرص، لما أبداه من ملاحظاتٍ مهمة علىٍ ترجمتى، وتصويبات لبعض التعبيرات الكنسية القديمة التى لم تكن لى ألفة بها.

ولستُ واثقًا من أن ترجمتى هذه إلى العربية، قد نجحتْ فى مماثلة لغة النص السريانى بهاءً ورونقًا. فبالإضافة إلى أن السريانية كانت تمتاز منذ هذا الوقت المبكر بوفرة آدابها وتطور أساليب الكتابة بها، فإن لغة الراهب هيبا وتعبيراته، تعدُّ آيةً من آياتِ البيان والبلاغة. ولطالما أمضيتُ الليالى الطوال فى تأمُّلِ تعبيراته الرهيفة، البليغة، والصور الإبداعية التى تتوالى فى عباراته، مـؤكِّدةً شاعريته وحساسيته اللغوية، وإحاطته بأسرار اللغة السريانية التى كتب بها.

وقد جعلتُ فصول هذه (الرواية) على عدد الرقوق التى هى متفاوتةُ الحجم؛ بطبيعة الحال. وقد أعطيتُ للرقوق عناوين من عندى، تسهيلاً لقارئ هذه الترجمة التى يُنشر فيها هذا النص النادر لأول مرة. وتسهيلاً للقارئ أيضًا، استعملتُ فى ترجمتى الأسماء المعاصرة للمدن التى ذكرها الراهب هيبا فى روايته. فإذا ذكر مدينة بانوبوليس الواقعة بقلب صعيد

مصر، ترجمتها عن اسمها اليونانى هذا، إلى الاسم المعروفة به اليوم: أخميم. وبلدة جرمانيقى الشامية، جعلتها باسمها المعاصر: مرعش! وصحراء الأسقيط جعلتها باسمها المشهور اليوم: وادى النطرون.. وهكذا فى بقية المدن والمواضع التى وردت فى النص الأصلى، اللهم إلا تلك المواضع التى صار لاسمها القديم دلالةٌ قد يضيِّعها اسمها المعاصر، مثل نيقية الواقعة اليوم فى حدود تركيا؛ فمع أنها صارت تعرف باسم أزنيق، إلا أننى فضَّلت أن أذكرها باسمها القديم، لما له من أهمية خاصة فى تاريخ المجامع الكنسية؛ إذ انعقد فى هذه المدينة سنة ٣٢٥ ميلادية، المجمع العالمى (المسكونى) لرؤساء الكنائس، الذى تمَّ فيه الحكم على القَسّ المصرى آريوس بالحرم والطرد والنفى، باعتباره مُهَرْطِقًا وكافرًا بالأُرثوذكسية (الإيمان القويم).. أما ما لم يشتهر من المواضع الواردة فى الرواية، فقد أوردت اسميه القديم والجديد معًا، منعًا للالتباس.

وقد وضعتُ بعد الشهور والسنوات القبطية التى ذكرها المؤلف؛ ما يقابلها من الشهور والسنوات الميلادية المعروفة اليوم. وأوردتُ، فى مراتٍ قليلة، بعض الملاحظات والإشارات الضرورية الموجزة، وبعض التعليقات (العربية) التى وجدتها فى الحواشى. ثم ألحقتُ بالرواية بعض الصور المرتبطة بأحداثها.

المترجم

الإسكندرية فى ٤ إبريل ٢٠٠٤

الرَّقُّ الأَوَّلُ

بَـدْءُ التَّـدْوِيـنِ

الرحمة يا إلهى. الرحمة والعفو يا أبانا الذى فى السماوات. ارحمنى واعفُ عنى، فإنى كما تعلم ضعيفٌ. يا إلهى الرحيم، إن يدىَّ ترتعشان رهبةً وخيفةً، وقلبى وروحى يرتجفان من تصاريف وعصف هذا الزمان. وأنت وحدك يا إلهى الرحيم، لك المجد، تعلم أننى اقتنيتُ هذه الرقوق قبل سنين، من نواحى البحر الميت، كى أكتب فيها أشعارى ومناجاتى لك فى خلواتى، ليتمجَّد اسمك بين الناس فى الأرض مثلما هو مجيدٌ فى السماوات. وكنت أنوى أن أدوِّن فيها ابتهالاتى التى تقرِّبنى إليك، وقد تكون من بعدى صلوات يتلوها الرهبانُ وأهلُ الصوامع الأتقياء فى كل زمانٍ ومكان. وها أنا لـمَّا حان وقت التدوين، أوشك أن أكتبَ فيها ما لم يخطر لى من قبلُ على بال، وقد يجرُّنى إلى طُرق الويل والوبال. يا إلهى، أتسمعنى! أنا عبدك المخلص، الحيران: هيبا الراهب وهيبا الطبيب وهيبا الغريب.. على ما يدعوننى به الناس فى بلاد غربتى! وأنت وحدك يا إلهى تعرف اسمى الحقيقى، أنت والناس فى بلادى الأولى التى شهدت مولدى. ياليتنى لم أولد أصلاً، أو ليتنى متُّ فى طفولتى من دون آثام، حتى أضمن عفوك ورحمتك.

ارحمنى يا رحيم، فإننى مشفقٌ مما أنا مقبلٌ عليه، ولكننى مضطرٌ. فأنت تعلم، فى سماواتك البعيدة، كيف يحوطنى إلحاحُ عدوِّى وعدوِّك اللعين عزازيل الذى لا يكفُّ عن مطالبتى بتدوين كل ما رأيته فى حياتى.. وما قيمة حياتى أصلاً، حتى أُدوِّن ما رأيته فيها؟ فأنقذنى يا إلهى الرحيم من وسوسته لى، ومن طغيان نفسى. إننى يا إلهى، لا زلتُ أنتظر منك إشاراتٍ لم تأتِ. وقد استبطأتُ عفوك، ولكننى إلى الآن ما شككتُ. فإن شئتَ يا صاحب العزة السماوية والمجد الذى فى الأعالى، أن تدركنى بإشارةٍ منك، فإننى مستقبلٌ أمرك ومطيعٌ. ولو تركتنى لنفسى، أضيع.. فقد صارت نفسى معلَّقة من أطرافها، تتنازعها غواياتُ عزازيل اللعين، ونكاياتُ أشواقى بعد ابتعاد مرتا التى انقلبت معها دولة باطنى.

سأبتهلُ إليك يا ربِّ الليلة، وأُصَلِّى، وأنام. وقد خلقتنى لحكمةٍ خفيةٍ، كثيرَ الأحلام. فأرسلْ لى فى منامى من فيض كرمك إشارةً تُنير لى الطريق، مادامت بشاراتك قد عَزَّتْ فى صحوى وامتنعتْ. فإن صرفتنى بإشارتك يا إلهى عن الكتابة انصرفتُ، وإن تركتنى لنفسى كتبتُ.. وما أنا يا إلهى إلا ريشةٌ فى مهب ريح، يمسكها إصبعٌ ضعيف ينوى أن يغمسها فى الدواة، ليخطَّ كُلَّ ما وقع مَعى، وكُلَّ ما جرى ويجرى مع أعتى العصاة عزازيل وعبدك الضعيف، ومرتا.. الرحمة، الرحمة، الرحمة.

✣ ✣ ✣

بسم الإله المتعالى [1] أبدأُ فى كتابةِ ما كان وما هو كائنٌ من سيرتى، واصفًا ما يجرى من حولى وما يضطرم بداخلى من أهوال. وأول تدوينى هذا، الذى لا أعرف كيف ومتى سيكون منتهاه، هو ليلة السابع والعشرين من شهر توت (أيلول، سبتمبر) سنة ١٤٧ للشهداء، الموافقة لسنة ٤٣١

---

(١) فى هذا الموضع من المخطوطة، اضطرابٌ ملحوظٌ فى رسم الكلمات. (المترجم).